انه طول الوقت يحكي هكذا ، تقول له : كيت وكيت يقول لك ، طيب ، ولكن شرط كذا وكذا . كل شيء عنده له أول ووسط وآخر ، ودائما يقول ان الامور غير هذا ، وان المسائل أعمق من هكذا ... وهكذا .. ولكنني لا أفهم كل شيء ، وأظل أهز رأسي ..

ـــ أنا أعتقد انني أفهم بعض الشيء أيضا ..

ـــ أنت مثله . انتما تتحدثان أكثر من قاضي معزول ، وانا أعتقد انه لم يشعر بالملل في السجن ، فقد أمضى الوقت ، طوال ١٢ سنـــة ، يتحدث مع ذلك الرجـل الآخـر بالسياسة ... على كل حال . فقد رأيت انه يحتفظ تحت فرشته بمدفع رشاش . هل تعرف معنى هذا ؟ معناه أن الحبس لم يغيره ؛ أليس كذلك ؟

ـــ ١٦ ـــ

دخل ابو حمدان الى حياتنا عن بعد ، ولكنني لم أره قط ، ولا استطاع عبد العاطي أن يراه ، وكنا نسمعه من خلال الولد حمدان ، ونراه من خلال التغير الثابت الذي كان يطرأ على هذا الفتى يوما بعد يوم ، وكان عبد العاطي يستمع الى الولد حمدان وهو ينقل تفاصيل مقطعة عن الكلام الذي كان يتبادله مع أبيه، ومن ثم كان يشركني بالحصيلة عبر أساليب مختلفة كنا ، دون أن ندري ، نطورها نحن الثلاثة معا من خلال احتكاكنا المتواصل ، ومن خلال المواضيع التي كنا نرى انفسنا نبحثها في كل يوم .

ولم يعد مصطفى يخيفني ، وفي الحقيقة انه لم يخفني قط قبل ذلك ، الا انه كان يثير فيّ خشية بالنسبة للمستقبل ، ومع مضي الايام أخذت أنا ، وأخذ بعض الموظفين ، يدركون بأن الحدود التي يستطيع ان يصلها في نشاطه ليست بعيدة الى الحد الذي اعتقدناه في البدء ، وان مسار يومياته قد مضى على الاسلوب نفسه الذي كان لها منذ ان عرفناه ، لعدة سنوات خلت ، الا أن زيادات طفيفة ـــ مثل ملح الطعام او بهاراته ـــ قد طرأت هنا وهناك على نشاطه اليومي .

وقد كانت حياتنا تسير بشيء يشبه الهدوء ، لولا ذلك الطعم الجديد الذي أدخله حمدان اليها ، بطريقته المفعمة بالتحير ، الى أن حدث ذات يوم حادث بدا لي صغيرا في لحظتها، ولكنه لم يكن كذلك كما تيقنت فيما بعد ، فقد كنت في مكتبي في الوكالة حين أحسست بأن شخصا ما يقف قرب طاولتي ، وحين رفعت بصري وجدت زينة واقفة هناك وهي تحمل احد أطفالها على خاصرتها ، وقد بدت لي أقل جمالا مما تصورت ، ولا شك ان الحزن قد انهكها ، وكانت تتحدث الي والدموع تملأ عينيها ، الا انني لم أكن لأفهم شيئا ..

وفجأة اصطدم بصري بمصطفى الذي كان جالسا وراء طاولته ، قبالتي يسترق النظر دون ان يتحرك ، فأشرت لها ان تذهب اليه ، ولكنها دون ان تنظر الى حيث أشرت أخذت تهز رأسها رافضة وهي تصرخ ، وشرع طفلها يبكي ويتمسك بها ، ودون توقع مني بدأت دموعها تنهمر وكأن أبوابا موصدة امام عينيها قد فتحت فجأة على مصاريعها.

وربما لن أعرف ، طوال عمري ، ما الذي كانت تقوله تلك اللحظة ، واشعر في كل لحظة بندم شديد ولا أدري لمن يتعين علي ان أوجه وخزاته ، اذ لست أعرف من الذي ينبغي أن يلام ، ولقد استدارت وخرجت من المكتب وأنا أنظر الى كتفيها يهتزان من تأثير النشيج الذي كانت غارقة فيه ، وكان رأس طفلها المعلق على خاصرتها يهتز هو الآخر بتناغم محزن ، وفي تلك اللحظة نظرت نحو مصطفى ، وأعتقد انني شهدت ، للحظة أقل من الثانية ، بقايا ابتسامة خبت بسرعة حين شاهدني انظر اليه ، وعندها فقط مر في رأسي قرار صغير ، بأن انهض وأتجه نحو مصطفى وأستل عمره من عروق رقبته ، ولكنني هدأت بسرعة ، وتنهدت ، وعدت الى أوراقي .